

كَيْفَ نَوْضًا بِخِلَافِ النَّبِيِّ؟

دُرُوسٌ رَمَضَانِيَّةٌ مِنْ عَطَاةَاتِ سَيْرَةِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، لَفَضِيْلَةِ الدُّكْتُورِ / أَحْمَدِ عَلِيٍّ سَلِيْمَانَ (رمضان ١٤٤١هـ) صوت الدعاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣) فلسفة التدرج في الإسلام

(مراحل فرضية الصيام أحد تجليات الرحمة الإلهية)

قصة صيام الوصال، وحكاية كل مرحلة من مراحل الثلاث

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

فلسفة التدرج في الإسلام:

التدرج في الإسلام منهج أصيل يتجلى في التشريع، والتربية، والتعليم. وهو أسلوب حكيم يتناسب مع الفطرة البشرية، ويستهدف: تحقيق التغيير بطريقة سلسة ومتوازنة دون إلحاق المشقة أو الإضرار بالنفوس.

أهمية التدرج في الإسلام

أولاً: مراعاة الفطرة البشرية:

فالإنسان بطبيعته لا يستطيع الانتقال الفجائي من حال إلى حال؛ لذا جاء الإسلام بمنهجية التدرج في التكليف والأحكام، وهو منهج إسلامي أصيل وجدناه في أمور كثيرة: منها: انتهاج الصبر في تعلم الأولاد الصلاة، وتحريم الخمر، وتحريم الربا... إلخ.

ثانياً: تحقيق الثبات والاستقرار والاستدامة:

فالتدرج يساعد في ترسيخ المبادئ والقيم، ويجعل الالتزام بها مستداماً، بدلاً من أن يكون اندفاعياً مؤقتاً.

ثالثاً: رفع الحرج والتيسير على الناس:

فالإسلام دين يُسْر، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَةِ) (١).

مجالات التدرج في الإسلام

١- التدرج في التشريع

- نجد في القرآن والسنة أن الأحكام الشرعية نزلت متدرجة، مثل:
 - تحريم الخمر: بدأ بالتنويه أنه يضم أمرين (سكرا وزرقا حسنا) ثم بالنهاي عن شربه وقت الصلاة، ثم التلميح بأنه مضر، ثم التحريم القطعي.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

كَيْفَ نَوْضَابِ الْخَالِ وَالنَّبِيَّةِ؟

دُرُوسٌ رَمَضَانِيَّةٌ مِنْ عَطَاآتِ سِيرَةِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، لفضيلة الدكتور/ أحمد علي سليمان (رمضان ١٤٤١هـ) صوت الدعوة

○ فرض الصلاة والصيام والزكاة: جاءت الأحكام متدرجة حتى يتقبلها الناس.

٢- التدرج في الدعوة إلى الله

- بدأ النبي (ﷺ) بالدعوة سراً، ثم جهر بها بعد تقوية القاعدة الإيمانية.
- استخدم أساليب متعددة مثل: الحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن.

٣- التدرج في التربية والتعليم

- التربية في الإسلام تعتمد على التدرج في ترسيخ القيم والعقائد.
- النبي (ﷺ) كان يعلم الصحابة شيئاً فشيئاً حتى يثبت في قلوبهم.
- مراعاة مراحل النمو في تعليم الأطفال.. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) قال: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) (٢).

فالطفل يُؤَلِّدُ لَا يَعْقِلُ شَيْئاً، ثُمَّ يَكْتَسِبُ مَعَارِفَهُ مِنَ الْمُلَاحَظَةِ وَالتَّعَلُّمِ مِنَ الْآخَرِينَ وَخَاصَّةً الْوَالِدِينَ.

- وفي هذا الحديث يعلمنا النبي (ﷺ) التدرج في أمر الأولاد بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، ونعلمهم كيفيتها وآدابها، وهذا سنُّ السَّمَّاحِ وَالتَّجَاوُزِ وَالتَّعَلُّمِ.
 - ثم إذا بَلَغَ الطِّفْلُ عَشْرَ سِنِينَ أُزِمَ بِالصَّلَاةِ حَيْثُ ظَلَّ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ يَتَدَرَّبُ عَلَيْهَا، فَإِذَا قَصَرَ فِي الصَّلَاةِ بَعْدَ هَذِهِ السَّنِّ عَوِّبَ حَتَّى يَعْتَادَ عَلَى أَدَائِهَا.
 - فإذا ما دَخَلَ وَقْتُ التَّكْلِيفِ يَكُونُونَ قَدْ اعْتَادُوا عَلَيْهَا دُونَ أَدْنَى تَفْرِيطٍ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الْعِبَادَةِ.
- كما أمرنا بالتفريق بينهم في المَضَاجِعِ إِذَا بَلَغُوا سِنَّ الْعَاشِرَةِ، حَيْثُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَوْلَادِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، وَبَيْنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ فِي النَّوْمِ بِجَانِبِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَيُفْصَلُ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا الْعَمْرَ بَدَايَةُ الدُّخُولِ فِي مَرَحَلَةِ الْبُلُوغِ وَمَعْرِفَةِ الشَّهْوَةِ، حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى سِنِّ الْبُلُوغِ وَالشَّهْوَةِ يَكُونُونَ قَدْ اعْتَادُوا عَلَى هَذَا الْفَصْلِ، وَالْمُرَادُ بِالْمَضَاجِعِ: أَمَاكِنُ النَّوْمِ.

٤- الدعوة إلى الاعتدال والبعد عن التشدد ورفع المشقة

الإسلام يحث على الاعتدال وعدم التشدد، عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْعِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، فَإِنَّ الْأُمْنَبْتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى) (٣). حيث يُرَاعِي الْإِسْلَامُ ظُرُوفَ النَّاسِ، كَالْتَخْفِيفِ عَلَى الْمَسَافِرِ وَالْمَرِيضِ فِي الْعِبَادَاتِ.

وهكذا فإن فلسفة التدرج في الإسلام تُظهِرُ رَحْمَتَهُ وَحِكْمَتَهُ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْمَجْتَمَعِ، فَهِيَ وَسِيلَةٌ فَعَالَةٌ لـ:

١- ترسيخ الإيمان

٢- وتثبيت الأحكام

٣- وتحقيق التغيير بشكل مستدام دون إفراط أو تفريط.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه واللفظ له، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، وانظر شرح الحديث في الدرر السنية.

(٣) أخرجه البزار، وأخرجه أحمد في مسنده، والسيوطي في الجامع.

كيف نؤتيها بالخير؟

دروس رمضان من عطاءات سيرة خير البرية، لفضيلة الدكتور/ أحمد علي سليمان (رمضان ١٤٤١هـ) صوت الدعاة

فلسفة التدرج في شعير الصيام:

تشريع الصوم جاء متدرجاً ككثير من التشريعات التي تتعلق بنقل الناس من إرث العادات كالخمر والربا إلى بوتقة العبادات، محققاً رحمة الله تعالى في عباده.

صيام الوصال:

لقد كان للنبي (ﷺ) صيام يسمى صيام الوصال.. أي أنه كان يمكث أياماً عدة متواصلة لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً.. لا إفطاراً ولا سحوراً..

وأراد الصحابة أن يقلدوه في صيام الوصال، فلم يرضى النبي (ﷺ) لهم بذلك، ونهي عنه رحمة بهم وبالامة، ولما ناقش الصحابة الكرام الرسول (ﷺ) في ذلك؛ رغبة منهم في تحصيل الأجر الكبير، حيث قالوا له يا رسول الله: إنك تواصل.. فيقول لهم في تواضع العظماء موضعاً لهم العلة .

فعن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (ﷺ) قال: (لا تُواصلوا، قالوا: إنك تُواصل، قال: إني لستُ مثلكم، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني) (٤)، وفي رواية عن أبي هريرة: (نهي رسول الله (ﷺ) عن الوصال في الصوم فقال له رجلٌ من المسلمين: إنك تُواصل يا رسول الله، قال: وأيكم مثلي، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني) (٥).

فالعبادات في الإسلام أمورٌ توقيفيةٌ تُؤدى كما أمر بها الله (سبحانه وتعالى)، وقد أمرنا أن نتقي الله قدر الاستطاعة دون مشقة على الأنفس، وألا نتشدد في الدين؛

- لأنَّ الناسَ يختلفون في قدراتهم وتحملهم.

- وحتى لا تملَّ النفوسُ من العباداتِ ومن أوامرِ الدينِ.

لذلك فإن من تمام رحمة سيدنا النبي (ﷺ) وشفقته بأمته وخوفه عليها من الملل من العبادة والتعرض للتقصير في بعض وظائف الدين أنه نهى أُمَّته عن مواصلة الصوم؛ حيث إنَّ الوصال لم يُشرعْ للأُمَّة، وإنما هو خصوصيةٌ من خصوصياته (ﷺ)، فهو يبيتُ يطعمه ربه ويسقيه أثناء الليل؛ وذلك على أحد وجهين:

الأول: إما على الحقيقة فيطعمه ربه من طعام الجنة؛ فيكون ذلك من معجزاته.

الثاني: أن الله تعالى يجعل فيه قوة الطاعم الشارب، ويفيض عليه ما يسد مسد الطعام والشرب، ويقوى

على أنواع الطاعة من غير ضعف في القوة.

مراحل فرضية الصيام:

وهنا نتحدث عن مراحل فرضية الصيام:

لقد تدرج تشريع الصيام من ليبدأ اختيارياً ثم إلزامياً على القادر عليه.

المرحلة الأولى:

ففي المرحلة الأولى أوجب الله تعالى الصيام على المسلمين كما أوجبه على الذين من قبلهم حتى يجتهد المسلمون في أداء هذه الفريضة أكثر مما فعله الأولون؛ لتتحقق خصيصة التقوى في نفس الصائم.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، وشرح الحديث بتصرف واختصار لشرحه في الدرر السنية.

كيف نؤتيها خيراً؟

دروس رمضان من عطاءات سيرة خير البرية، لفضيلة الدكتور/ أحمد على سليمان (رمضان ١٤٤١هـ) صوت الدعاة

فكان الرسول (ﷺ) والمسلمون، يصومون ثلاثة أيام من كل شهر إضافة إلى صيام يوم عاشوراء..
جاء في تفسير الإمام ابن كثير (رضي الله عنه) أن المسلمين في بداية فرضية الصيام كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، كما كانت عليه الأمم السابقة، حيث أنزل الله تعالى قوله: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** (البقرة: ١٨٣).

أحكام المرحلة الأولى:

وكان المريض والمسافر في هذه المرحلة لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهم، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك..

أما الشخص الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فقد كان محيراً بين الصيام وبين الإطعام، فإن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً فإن زاد عن مسكين فهو خير له، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. وهكذا بدأ تشريع الصيام متدرجاً حتى إذا ألفت النفوس، وتعودت عليه أوجب الله عليهم الصيام

المرحلة الثانية:

أما المرحلة الثانية ففيها أنزل الله تعالى قوله: **(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** (البقرة: ١٨٥).
فأثبت الله صيامه علي الصحيح المقيم، وخصص فيه للمريض والمسافر، كما أثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام بعد ذلك..

أحكام المرحلة الثانية:

وفي هذه المرحلة كان اليوم جله صياماً، أما فترة الإفطار فكانت تقع ما بين المغرب والعشاء، فيجوز فيها الأكل والشرب والجماع، فإذا جاءت صلاة العشاء أو نام الشخص قبلها، حُرِّمَ عليه الطعام والشراب والشهوة إلى المغرب من اليوم التالي.

المرحلة الثالثة:

فجاءت عقب قصتين لرجلين نزل فيهما قرآن ليؤسس للمرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل فرضية الصيام.. فالرجل الأول صلي العشاء في رمضان ثم جامع زوجته.. فذهب إلى الرسول الرحيم ليخبره: أتيت أهلي في ليل رمضان بعد العشاء وأنا صائم.

أما الرجل الثاني فقد دخل بيته قبل المغرب بقليل وقال لزوجته: أعندك طعام نفطر عليه؟ وقد عاد بعد يوم مليء بالكفاح والنضال والجهاد والسعي علي لقمة العيش.. فقالت له انتظر حتي أبحث لك عن طعام، فخرجت المرأة تسأل الجيران طعاماً، وعادت بالطعام، فوجدت زوجها قد نام وأذن المؤذن لصلاة العشاء، وقد فات أوان الإفطار، ومن ثم عليه أن يصل الصوم إلى المغرب من اليوم التالي.

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة تتجلى رحمت الله بعباده، وفيها أنزل الله مرسوماً إلهياً يقول فيه: **(أَحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ آمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا**

كَيْفَ نَوَصَّيْنَا بِالْخَلْقِ النُّبُوَّةَ؟

دُرُوسٌ رَمَضَانِيَّةٌ مِنْ عَطَاآتِ سِيرَةِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، لفضيلة الدكتور/ أحمد علي سليمان (رمضان ١٤٤١هـ) صوت الدعوة

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (البقرة ١٨٧) والرفث هنا هو: الجماع... والقرآن دائما يستعمل اللفظ المناسب في المكان المناسب، وهو يعلمنا أن نستعمل الألفاظ في مواقعها الصحيحة.. فالقرآن حيي، كله حياء.. يقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة: "هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة.. أي كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وأن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله (ﷺ) العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله (ﷺ) فأخبره بذلك، فأنزل الله الآية الكريمة".

ففي شأن من جامع زوجته في الصيام يقول تعالى: **(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ عِلْمٌ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ...)** (البقرة ١٨٧) هذا عن الذي أتى أهله في ليل رمضان..

أما الرجل الذي نام حتى فاتته الإفطار فنزل قوله تعالى: **(...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...)** (البقرة ١٨٧) ليخفف عنه وعن المسلمين ويجعل وقت الإفطار من المغرب إلى الفجر

والمراد بالخيطة الأبيض هو الفجر، والخيطة الأسود هو الليل.. **(...ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...)** أي إلى أذان المغرب، وهكذا خفف الله تعالى الصيام رحمة بالأمة الإسلامية.. خير أمة أخرجت للناس..

أحكام المرحلة الثالثة:

وهكذا امتد وقت الإفطار في هذه المرحلة الثالثة والأخيرة من المغرب إلى الفجر، وصارت أحكام الصيام وفق ما نحن عليه الآن، فالصيام فرض على المسلم البالغ العاقل من الفجر إلى المغرب، أما المريض والمسافر فله أن يفطر ويعيد الأيام التي أفطرها، أما المريض الذي لا يرجى برؤه فيفطر ويفدي والله تعالى أعلى وأعلم.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ... اللَّهُمَّ ادْخِلْ عَلَيْنَا وَعَلَى أَهْلِيكُمْ وَأَنْجَالِكُمْ وَأَحْفَادِكُمْ وَذُرَارِيكُمْ أَجْمَعِينَ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالْحُبُورَ، وَالسَّعَادَةَ الْعَامَّةَ التَّامَّةَ الْكَامِلَةَ الشَّامِلَةَ الدَّائِمَةَ الْمُسْتَقَرَّةَ الْمُسْتَمِرَّةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ لَنَا وَلِأَوْلَادِنَا، وَلِمُجْتَمَعِنَا وَلِشَعْبِنَا.

اللَّهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا، شِمَالَهَا وَجَنُوبَهَا، طُوبَاهَا وَعَرَضَهَا وَعُمُقَهَا، بَحَارَهَا وَسَمَاءَهَا وَنَيْلَهَا، وَوَقْفَ يَا رَبَّنَا قِيَادَتَهَا وَجَيْشَهَا وَأَمْنَهَا وَأَزْهَرَهَا الشَّرِيفَ، وَعُلَمَاءَهَا، وَاحْفَظْ شَعْبَهَا، وَبِلَادَ الْمُحِبِّينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ (ﷺ)، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

خادم الجناب النبوي

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

واتس أب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman@gmail.com

متابعة الصفحة الرسمية، وعنوانها: (الدكتور أحمد علي سليمان)؛ [ضمن لك كل جديد](https://www.facebook.com/drahmedalisoliman) <https://www.facebook.com/drahmedalisoliman>